﴿ سيرة الامام الشافعي رضي الله عنه ﴾

(بقية ما سبق)

ذكرنا في العدد الأسبق من سيرة الامام أثارة من علمه وشدة تمسكه بالسنة ووقوفه عند حدودها وتعظيمه بالحق لمن جاء بها وخذله للبدعة ونفوره منها وذلك كاف للتذكير بفضائله المسلمة ومناقبه الكثيرة ومما يؤثر عنه انه قال «من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الايمان من امر بالمعروف وائتمر ونهى عن المنكر وانتهى وحافظ على حدود الله تعالى» وحسبك هذا الاثر وحده حجة على الذين يحتفلون بمولده وكنسة ضريحه فان صورة هذا الاحتفال بدعة مصبوغة بصبغة الدين ومواظبة أكابر العلماء عليها يوقع في قلوب العامة أنها مشروعة جاعلين اياها من زيارة القبور المأذون بها من الشارع ولكن زيارة القبور التي رخص فيها الشارع لاجل تذكر الموت لم تكن بهذه الكيفية من تعظيم القبر وجميع ما يحتف به حتى الكناسة والنسيج الذي يوضع عليه من نحو ستر وعمامة والوقوف حوله بغاية الذلة والخضوع بل والصلاة في جانبه فقد نطق التاريخ بان مثل هذا وجد أولا عند الوثنيين وسرى لبعض أهل الكتاب بالامتزاج بهم وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يلعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد حتى في مرض موته كما في الصحاح وكان يقول في مرض موته أيضا «لا تتخذوا قبري عيدا» أخرجه في الموطأ . ويتوهم من لم يقف على نبأ الاولين والقوم الذين اشارت الاخبار الى اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد وأوثانا ونطق القرآن بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا أنهم كانوا يسمونهم آلهة و يعبدون أشخاصهم أحياء وقبورهم أمواتا عبادة حقيقية وليس كذلك بل كانوا يعظمونهم تعظيماً لم يأذن به الله فيجعلونهم وسطاء بينهم و بينه في قضاء حاجهم الدنيوية ووسيلة لعرض أعمالهم على رحمن البرية ويحتفلون الاحتفالات الدينية عند قبورهم كالصلاة والدعاء ويزعمون ان الله أعطاهم قوى روحية يتصرفون بها في الكون باذنه بما لا يصل اليه سعي

غيرهم ويطبقون أفعالهم واعتقاداتهم على نصوص الدين بالاستنباط والتأويل (١) . وكتبهم الدينية وكتب التاريخ شاهدة بذلك . أي معنى لانكار العلماء باسم الدين على موحد لم يرض أن يضع العمامة التي توضع على ضريح الإمام على رأسه مثلهم وعلى قوله إن أكل هذا البرتقال خير لي من وضعها على رأسي لانه ينفعني وهي ليست من أسباب النفع مثله ؟ أليس هو من انكار المعروف ؟ ؟ لو ورد مثل هذا عن الشارع لوجب أن نعده من الأمور التعبدية التي لا يقاس عليها ولذلك قال سيدنا عمر في الحجر الأسود انني أعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع(٢) ولولا انني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لما قبلتك . وقطع هذا الخليفة الذي أعز الله به الاسلام الشجرة التي حصلت تحتها بيعة الرضوان واجتمع عندها النبي وخيرة أصحابه وما قطعها رضي الله عنه الا لانه رأى بعض الناس يعظمها فخشي ان يعتقد فيها سببية النفع أو وسيلة الزلفى الى الله تعالى وتلك الوثنية بعينها ، فلم لا ينكرون المعاصي والمكروهات التي تقع هالك وهي كثيرة جدا

كان كاتب هذه السطور يوما ما في قبة الإمام وكان ثم جماعة من أكابر علماء الأزهر وأشهرهم فأذن المؤذن العصر مستدبرا القبلة فقلت لهم لم لم يستقبل هذا المؤذن القبلة كما هو السنة فقال احدهم « انه يستقبل ضريح الإمام » !! أوليس هذا من الاقرار على المنكر ؟ وكذلك لا ينكرون على من يستقبل قبر الامام في صلاته والإمام يتبرأ من ذلك لانه من المحظورات والمنكرات في الدين ومذهبه في ذلك معروف

هذا قليل من كثير والتعظيم الصحيح للإمام هو إحياء علمه واقتفاء أثره في الاجتهاد في العلم والعمل والفضائل وذكره بالخير كالدعاء له فان حسن الذكر هو الشرف الباقي وبمثل هذا كان يعظمه الامام أحمد بن حنبل بعد موته فقد جاء في الاحياء عنه انه قال ما صليت منذ أربعين سنة الا وأنا أدعو للشافعي قال الغزالي « فانظر إلى انصاف الداعي والى درجة المدعو له وقس به الاقران والامثال من العلماء في هذه الاعصار وما يجري بينهم من المتاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء

(١) كل ما ذكر عنهم آنفا فهو عادة حقيقية (٢) وروي هذا مرفوعا أيضا

بهؤلاء. ولكثرة دعائه له قال له ابنه أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال أحمد يابني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فانظر هل لهذين من خلف ؟ وكان أحمد يقول ما يس أحد بيده محبرة الا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة » وأورد في الاحياء شواهد عن الامام تدل على تبحره في علم القرآن واخلاق الدين محتجا على الفقهاء الذين يزعمون اتباعه وهم أخلياء منها وذكر أيضا بعض الوقائع التي تدل على خشيته من الله تعالى وزهده في الدنيا ثم قال « ولا يحصل ذلك الى من معرفة الله تعالى فإنما يخشى الله من عباده العلماء ولم يستفد الشافعي هذا الخوف من علم كتاب السلم والاجارة وسائر كتب الفقه بل من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والاخبار اذ حكم الاولين والآخرين مودعة فيهما»

أقول فليعتبر المخذولون الذين يقولون ان الدين كله في هذه الكتب الفقهية فينبغي صرف الهمة اليها ونبذ الكتاب والسنة ظهريا الا مايكون من التغني بالقرآن والتبرك بقراءة نحو البخاري أو الشفاء ولم تنحرف أمة عن عدي الدين أكثر من هذا الانحراف

وقال الامام أبو ثور ما رأيت ولا رأى الراؤن مثل الشافعي . وقال أبو زرعة الرازي ما أعلم أحدا أعظم منة على أهل الاسلام من الشافعي . ومحاولة استقصاء كلام الائمة والعلماء في الثناء عليه محاولة محال ولكن لم ينقل عن واحد من أولئك الاخيار الذين كانوا يجلونه كل هذا الاجلال انه أخذ شيأ من كناسة ضريحه أو تبرك بثياب توضع عليه . فبمن تقتدي اذا اختلف الادلاء ؟ واذا تفرقت السبل فايها يسلك الجهلاء ؟ لا جرم أن النجاة في سلوك سبيل الاولين ؟ والاقتداء بالسلف الصالحين ، فلا تغتري أيتها العامة بالعمائم المكورة ؟ والاردان المكبرة ، والاذيال المجرورة ، فالحق لا يموت بانتشار البدع في العالمين ؟ والله ولي المتقين

أما مذهب الامام في الفقه فهو أقصد المذاهب . ذلك أن الفقه إنما نفقت سوقه وزخرت بحاره في الحجازيين والعراقيين فأهل الحجاز وأشهر أئمتهم مالك بن أنس كانوا أصحاب رواية كثيرة ولذلك مهروا في فقه الحديث وأهل العراق واشهر أئمتهم أبو حنيفة النعمان وصاحباه برعوا في فقه القياس والامام الشافعي برع في الفقهين معاً

كما حققه ابن خلدون حكيم المؤرخين . وحسبك انه واضع علم الاصول الذي لم يصل الفقه الى درجة الكمال الا به

مناظرات الامام

كان له مناظرات مع ائمة عصره يعلم منها علو مدركه ودقة نظره في القياس نذكر منها هنا واحدة وهي ملخص المناظرة الشهيرة بينه وبين الامام محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة رضي الله تعالى عنهم

قال محمد ما تقول في رجل غصب من رجل ساحة فبنى عليها بناء انفق فيه الف دينار ثم جاء صاحب الساحة فاثبت بشاهدين عدلين ان هذا اغتصبه هذه الساحة و بنى عليها هذا البناء ما كنت تحكم قال الامام اقول لصاحب الساحة تحب ان تأخذ قيمتها فان رضي حكمت له بالقيمة و إن أبى الا ساحته قلعتها وردتها عليه . فقال محمد فما تقول في رجل اغتصب من رجل خيطا ابر يسم فخاط به بطنه فجاء صاحب الخيط فاثبت بشهادة عدلين ان هذا اغتصبه هذا الخيط أ كنت تنزع الخيط من بطنه؟ فقال الامام لا . فقال محمد الله اكبر تركت قولك . فقال الامام لا تعجل اخبرني لو لم يغتصب الساحة من أحد واراد ان يقلع هذا البناء منها اياح له ذلك ام يحرم ؟ فقال بل يباح فقال الامام أفرأيت لو كان الخيط خيط نفسه فارد أن ينزعه من بطنه اياح له ذلك أم يحرم ؟ فقال محمد بل يحرم . فقال الامام فكيف تقيس مباحا على محرم؟ فقال محمد أرأيت لو غصب رجل لوحاً وادخله في سفينة ولجج في البحر أكنت تنزع اللوح من السفينة ؟ فقال الامام لا بل آمره ان يقرب سفينته الى اقرب المراسي اليه ثم أنتزع اللوح وأدفعه الى صاحبه . فقال محمد أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ضرر ولا ضرار؟ فقال الامام هو أضر بنفسه ولم يضر به أحد . ثم قال الامام له ما تقول في رجل اغتصب من رجل جارية فولدها عشرة كلهم قد قرؤا القرآن وخطبوا على المنابر وحكموا بين المسلمين فأثبت صاحب الجارية بشاهدين عدلين ان هذا اغتصبها منه ناشدتك الله بماذا كنت تحكم ؟ قال كنت احكم بان أولاده ارقاء لصاحب الجارية . قال الامام فأيهما أشد عليه ضررا أن يجعل أولاده أرقاء أو يقلع البناء من الساحة (ومثله أن يقلع اللوح من السفينة) اهـ

حكم منثورة تؤثر عنه

منها وددت اني اذا ناظرت أحدا أن يظهر الله الحق على يديه . ومنها طلب العلم أفضل من صلاة النافلة . ومنها أعلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب في مودة لا ينفعه وقبل مدح من لا ينفعه . الوقت سيف وافضل العصمة أن لا تجد . تفقه قبل أن ترأس فان رأست فلا سبيل الى التفقه ، دققوا مسائل العلم لئلا تضيع دقائقه ، جمال العلماء كرم النفس وزينة العلم الورع والحلم ، فقر العلماء اختيار وفقر الجهلاء اضطرار ، أقول يعني ان العلماء يفضلون الاشتغال بما هم فيه من العلم على الاشتغال بالكسب الذي يخرج الانسان من مأزق الفقر الى باحة الغنى ففقرهم اختياري بخلاف الجهلاء فانهم لا يدعون سبيلا علموه للغنى الا اتخذوه ففقرهم اضطراري ، ومنها المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن ، أقول وما وسع خرق الخلاف بين علماء المسلمين حتى فرقوا دينهم شيعا وذهبوا في مذاهبهم طرائق قددا الا المراء وعدم ارادة الحق بالجدال

ومن مناقبه رضي الله عنه انه قال ما كذبت قط ولا حلفت بالله صادقا ولا كاذبا وما تركت غسل الجمعة في برد ولا سفر ولا حضر ، ولا شبعت منذ ١٦ سنة الا شبعة واحدة طرحتها من ساعتي . وكان يقول من لم تعزه التقوى فلا عز له ، ومن حكمه : من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومنها من أحب أن يفتح الله عليه بنور القلب فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبغض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم الا الدنيا ، أقول لأن هؤلاء يميلون مع الهوى ويشترون الضلالة بالهدى يقول أحدهم « ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق » بخلاف الذين يقولون « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » ، فالذي يريد بعلمه سعادة الدارين تنير صحبته القلب ، ومنها لو اجتهد أحدكم كل الجهد على أن يرضي الناس كلهم فلا سبيل له فليخلص العبد عمله بينه وبين الله تعالى ، ومنها لا يعرف الرياء إلا المخلصون ، ومنها سياسة الناس أشد من سياسة الدواب ، أقول لان الدواب لا تنازعك الرأي وأفرادها على طبيعة واحدة قال الشاعر

وليس يزجركم ما توعظون به　　والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

ومنها العاقل من عقل نفسه عن كل مذموم ، ومنها لو علمت أن الماء البارد ينقص مروءتي ماشربته ، أقول بهذه الشهامة والعزة تسود الأمم وتبلغ المعالي فليعتبر الذين يعدون الذل والمهانة من الدين ، ومنها ليس بأخيك من احتجت الى مداراته (وما أجلها كلمة وأروعها حكمة) ومنها من علامة الصادق في أخوة أخيه ان يقبل عثاره و يسد خلله و يغفر زلله ، ومنها من علامة الصديق ان يكون [illegible] صديقه صديقا ، ومنها ليس سرور يعدل صحبة الاخوان ولا غم يعدل فراقهم ، ومنها لاتقصر في حق أخيك اعتماداً على مودته ولا تبذل وجهك الى من يهون عليه ودك ، ومنها من وعظ أخاه سراً فقد نصحه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه ، ومنها لا تشاور من ليس في بيته دقيق

ومنها من نم لك نم عليك ومن اذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك (أي مدحا كذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك (أي ذما فليعتبر الذين يغترون بتملق المنافقين) ومنها من سامى بنفسه فوق ما يساوي رده الله الى قيمته

ومنها من كتم سره ملك أمره ، ومنها الانبساط الى الناس مجلبة لقرناء السوء والانقباض عنهم مجلبة للعداوة فكن بين المنقبض والمنبسط ، ومنها ما أكرمت أحداً فوق قدره الا نقص من مقداري بقدر ما زدت في اكرامه ، ومنها مداراة الأحمق غاية لا تدرك ، ومنها من ولي القضاء ولم يفتقر فهو لص ، ومنها من خدم علم

اشعار مأثورة عنه

الشعر ديوان الأدب ومنهل الحكم وقلما يجيده العلماء لمزاحمة الملكات العلمية لملكته ولذلك ولكونه صار آلة للاستجداء ترفعوا عنه وللإمام شعر جيد لا سيما في الحكم ومع ذلك قد قال

(ولولا الشعر بالعلماء يزري　　لكنت اليوم أشعر من لبيد)

لما شخص الامام الى (سر من رأى) دخلها وعليه أطمار رثة وكان طال سفره فطال شعره فتقدم الى مزين فأشار اليه ان انظر الى زيه وقال له امض الى غيري

فاشتد على الامام أمره فالتفت الى غلام كان معه وقال ايش معك من النفقة فقال عشرة دنانير فقال ادفعها الى المزين فدفعها اليه وولى الامام وهو يقول

عليّ ثياب لو تباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها ... نفوس الورى كانت أجل وأخطرا
وماضر نصل السيف أخلاق غمده ... اذا كان عضباً حيث أنفذته سرى
فان تكن الايام أزرت بيزني ... فكم من حسام في غلاف مكسرا

وهذه الابيات تنبيء عن رفعة وشمم وعزة نفس وعلو همة وكرم وسخاء . وناهيك بها فهي أمهات الفضائل وغرر السجايا المقائل وما أجدر أئمة الدين بها والله تعالى يقول « ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » وفي الحديث الشريف « علو الهمة من الايمان »

وروى العلامة السبكي في طبقاته الكبرى بسنده الى أبي حيان النيسابوري قال بلغني ان عباسا الازرق دخل على الشافعي يوما فقال يا أبا عبدالله قد عملت أبياتا ان أنت أجزت لي بمثلها لا يؤمن أن لا أقول شعرا أبدا فقال له الشافعي ايه فأنشأ يقول

ما همتي الا مقارعة العدا ... خلق الزمان وهمتي لم تخلق
والناس أعينهم الى سلب الغنى ... لا يسألون عن الحجا والأولق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني ... بنجوم أقطار السماء تعلقي

فقال الشافعي هلا قلت كما أقول استرسالا

ان الذي رزق اليسار فلم يصب ... حمدا ولا أجرا لغير موفق
فالجد يدني كل أمر شاسع ... والجد يفتح كل باب مغلق
واذا سمعت بان محظوظا حوى ... عودا فأثمر في يديه فصدق
واذا سمعت بأن محروما أتى ... ماء ليشربه فغاض فحقق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ ... ذو همة يبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وقد أورد هذه الأبيات ابن خلكان في ترجمة الإمام وعد منها قول عباس الأزرق لو كان بالحيل الغنى ـ البيت ـ وزاد بعده بيتا آخر وهو :

لكن من رزق الحجا حرم الغنى ضدان مفترقان أي تفرق

ونقص منها قوله (وأحق خلق الله بالهم امرؤ) البيت

ومن حكمه المنظومة في الشعر، كما ينظم في السلك نضيد الدر، قوله

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي
واذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي

ومنها ومنزلة الفقيه من السفيه كمنزلة السفيه من الفقيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

ومنها هذا البيت المفرد

رام نفعاً فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا

ومنها وهو مما ينبئ عن كرمه، وشرف شيمه

يالهف نفسي على مال أجود به على المقلين من أهل المروآت
ان اعتذاري الى من جاء يسألني ماليس عندي من إحدى المصيبات

ومنها في الصداقة

صديق ليس ينفع يوم باس قريب من عدو في القياس
وما يفي الصديق بكل عصر ولا الاخوان الا للتآسي
عمدت الدهر ملتمساً بجهدي أخا ثقة فأعياه التماسي
تنكرت البلاد عليّ حتى كأنّ أناسها ليسوا بناس

ومنها في الاعتماد على النفس من دون الناس

اذا المشكلات تصديني كشفت حقائقها بالنظر
ولست بإمّعة في الرجا ل أسائل هذا وذا ماالخبر
ولكنني مدره الاصغر ين فتاح خير وفراج شر

ومنها في المال ورفعة شأن أهله في نظر الناس وان كانوا أخساء

وأنطقت الدراهم بعد صمت اناسا بعد ان كانوا سكوتا
فما عطفوا على احد بفضل ولا عرفوا لمكرمة بيوتا

ومنها في العلم وصونه عن غير أهله

أأنثر دراين سارحة النعم وأنظم منثورا لراعية الغنم
فان يسر الله الكريم بفضله وألفيت أهلاً للعلوم وللحكم
يثبت مفيدا واستفدت وداده والا فمخزون لديّ ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وتزوج الإمام جارية من قريش فكان يلاطفها ويداعبها ويقول

ومن البلية ان تحب فلا يحبك من تحبه

فتجيبه هي

ويعد عنك بوجهه وتلحّ أنت فلا تغبه

وروى السبكي بسنده إلى البويطي صاحب الامام قال قلت للشافعي قد قلت في الزهد فهل لك في الغزل شيء فأنشدني

يا كاحل العين بعد النوم بالسهر ما كان كحلك بالميمون للبصر
لو أن عيني اليك الدهر ناظرة جادت وفاتي ولم أشبع من النظر
سقيا لدهر مضى ما كان أطيبه لولا التفرق والتغميض بالسفر
ان الرسول الذي يأتي بلا عدة مثل السحاب الذي يأتي بلا مطر

وبسنده الى صاحبه الربيع بن سليمان قال كنت عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها فمضى الرجل وتبعته إلى باب المسجد فقلت والله لا تفوتني فيا الشافعي فأخذت الرقعة من يده فوجدت فيها

سل المفتي المكي هل في تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

وقد وقع عليها الشافعي بهذا البيت

فقلت معاذ الله ان يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

قال الربيع فأنكرت على الشافعي ان يفتي لحدث بمثل هذا فقلت يا أبا عبدالله تفتي بمثل هذا لمثل هذا الشاب فقال لي يا أبا محمد هذا رجل هاشمي قد أعرس في هذا الشهر (رمضان) وهو حديث السن فسأل هل عليه جناح ان يقبل أو يضم من غير وطء فأفتيته بهذا . قال الربيع فتبعت الشاب فسألته عن حاله فذكر لي انه مثل قال الشافعي فرأيته أحسن فيها . وفقنا الله للاقتداء بهذا الإمام الجليل في علمه وعمله وخلقه وأدبه